

الفصل الحادى عشر

شعر الأنساب

تمهيد

يعد شعر الأنساب لونا ثانياً من الشعر التعليمى لا يقل أهمية وأثراً فى تثقيف الشعب عن سالفه ، فإذا كان الأول يبشر بمقدم طلائع الفلسفة إذ يصور لنا الفكر ينمو شيئاً فشيئاً إبان بحثه عن نواميس الحياة الأخلاقية والاجتماعية ، فإن الثانى يشعرنا بمولد التاريخ وبروزه للمرة الأولى على مسرح الحياة الهيلينية يعالج تحديد النظام الزمنى ، ويحاول ربط الحاضر بالماضى ، ووصل الأبناء والأحفاد ، بالآباء والأجداد .

نشأ هذا الشعر كغيره من الأناشيد الدينية ، وبيان ذلك أنه لما كان شعر هوميروس - مع اشتغاله على الحديث عن الماضى - لا يوضح لقرائه العناصر الأولى التى تكونت منها أسرة الأوليمپوس التى طالما ترددت فى قصيدتيه ولا يذكر لنا منشأ أبطاله ولا إلى أى الأسر ينتسبون . وبالإجمال لما لم يكن يعنى بالتحديد الزمنى عناية تسد حاجة العقل الذى بدأ يخرج من دور السذاجة إلى دور الرقى ، فقد أحس الهيلين بالحاجة إلى صوغ أساطيرهم الدينية وقصص آلهتهم وأبطالهم فى أسلوب تاريخى منظم ، ومزجها ببعض الأفكار الفلسفية المعقولة حتى تخرج من سذاجتها الأسطورية الأولى ، فحاولوا أن يشبعوا هذه الرغبة وقاموا فى ذلك بمجهود عظيم كان شعر الأنساب مبدأ طلائعه ، ومن ثم كانت محاولة مؤلف الثيوغونيا صوغ هذه الأساطير فى سلسلة منظمة تعتبر انقلاباً خطيراً وتجديداً جريئاً ، إذ أنه أزال الفوضى وأقر النظام والترتيب بين عالم الآلهة ، وقضى على تلك التعقيدات المظلمة ، بل التناقضات المعيبة التى كانت الأساطير إلى عهده مشحونة بها حين تحدثنا - إلى جانب (م ١٣ - الأدب الهيلينى)

الآلهة الحاكمين كزوس وأسرته عن آلهة آخرين قد خلعوا من عروشهم ، وانتزعت منهم سلطاتهم كأورانوس وكرونوس ، ولكن لا يدرى أحد كيف ولا متى ، وكذلك حين تذكرنا آلهة مشخصين إلى جانب آخرين لا يزيدون على أنهم معانٍ مجردة. فلما جاء هذا النوع من الشعر التعليمي الذي عني بوضع تاريخ دوحة الآلهة وضع كل شيء في موضعه ، وأوضح أسرار هذه المتباينات الظاهرية التي تشهد أعماقها بالترتيب المنطقي الوثيق ، والتماسك التاريخي المتين .

وأشهر قصائد هذا النوع من الشعر التعليمي قصيدة الثيوغونيا أو تاريخ الآلهة وقصيدة قائمة الأبطال .

فأما هذه الأخيرة فقد فقدت أكثريتها الغالبة ولم يبق منها إلا قطع ناقصة وتنف مشوهة ، وقد أرجع النقاد تاريخ هذه القائمة إلى القرن السابع قبل المسيح ، وسنتحدث عنها فيما بعد .

أما الثيوغونيا فهي سابقة على ذلك التاريخ ، إذ قد أرجعوها إلى نهاية القرن الثامن ، وقد بقيت كاملة ولم تُعفَّها الأيام كما عَفَّت القصيدة الأخرى .

(١) الثيوغونيا أو أسرة الآلهة

١ - وقفة تحليلية

تشبه الثيوغونيا شعر هزiodوس في أنها موجهة إلى الريفيين ، وأنها اشتملت على كثير من نصائحهم ، وقد دفع هذا الشبه فريقاً من النقاد إلى القول بأنها كلها لهزiodوس فعزوها إليه ، ولكن الحقيقة التي يدين بها النقاد المحدثون الآن هي أن هزiodوس قد أنشأ منها جزءاً لا يستهان به .

وأياماً ما كان ، فإن هذه القصيدة تتكون من ألف ومائتي بيت ، ولكن تقسيمها

— على النحو الذى سلكه النقاد بإزاء « الأعمال والأيام » — غير ممكن إلا بالنسبة إلى مقدمتها التى يتيسر فصل بعض أجزائها عن البعض الآخر فى سهولة .

ومع ذلك فمن الممكن وضع منهج واضح محدد لهذا الإحصاء الطويل الذى سُجل فيها ، تتميز به العصور المختلفة لمهود الآلهة ، وإليك هذا المنهج فى خطوطه الرئيسية أو هذا الموجز الخاطف لتلك القصيدة الجامعة .

يفتح المؤلف درته هذه بمقدمة رشيقة تشغل مائة وخمسة عشر بيتاً يدعو فيها عرائس الشعر إلى معونته مستلهاً منهن العلم وحسن التعبير .

وبعد ذلك يحدثنا فيما بين البيت السادس عشر بعد المائة والثانى والثلاثين بعدها عن نشأة الكون فنبئنا بأنه لم يكن فى مبدأ الوجود سوى الموجودات الثلاثة : خاؤوس أى الفراغ « Chaos » وغايا أى الأرض « Gaia » وإيروس أى الحب « Eros » . فمن الخاؤوس نشأ الليل ، ومن الليل نشأ النور ، ومن غايا نشأ أورانوس أى السماء Ouranos وپنتوس أى البحر Pontos وأما إيروس فلم ينسل شيئاً .

وفما بين الثالث والثلاثين بعد المائة والعاشر بعد المائتين يصور لنا المؤلف ما يدعو به العصر الثانى أو حُكم أورانوس ، فيخبرنا بأنه من اجتماع أورانوس وغايا قد نشأ التيتانوس مثل أكيانوس ، Okéanos وهيبريون Hypérion وكريوس Krios وكوثيثوس Koios وكذلك نشأ من هذا الاجتماع كل الككلوپوس Kiklopos وفى النهاية كرونوس Kronos بيد أن هذا الأخير لا يلبث أن يثور — مع جميع التيتانوس — بوالده فيقهره ويبتره ويكرهه على أن يتخلى له عن عرش الكون .

وفما بين البيت الحادى عشر بعد المائتين والثانى والخمسين بعد الأربعمئة يصف لنا حكم كرونوس ، ثم يرسم لنا كيف أنه مجتمعاً مع ريا ابنة السماء وإلهة الأرض — ينسل جيلاً آخر من الآلهة كزوس وهيريه وهاديس وپوسيدون .

وفما بين البيت الثالث والخمسين بعد الأربعمئة والبيت الثم للمائتين بعد الألف ، وهو

نهاية القصيدة يصور لنا المؤلف حكم زوس فينبئنا أنه لا يكاد ينتصر على والده و يظفر منه
بعرش الكون حتى يتألب عليه جميع التيتانوس ، والسكائن المزعج « تَفْيُوس » فلا يلبث
أن يدحرهم وينفرد بالسلطان . ومنه ومن زوجته ومن محظيات متباينات ينشأ أبولون ،
أورتميس ، وعرائس الشعر ، وأريس ، وهرميس ، وهيفستوس ، وديونيسوس ومن إليهم .
وأهم ما يلفت النظر في هذا الصدد هو تلك الفكرة الأساسية التي تبدو واضحة من
مبدأ القصيدة إلى نهايتها كأنها الهدف الأقصى الذي يرمى إليه المؤلف ، وهي أن حكم زوس
قد أنشأ في الكون عصرًا جديدًا لا عهد للدنيا به من قبل ، وهو عهد النظام والعدالة ،
ولا ريب أن هذه الملاحظة الدقيقة كانت بمثابة برهان قوى جديد يؤيد القول بأن
الأكثرية الغالبة من هذه القصيدة هي من وضع هز يودوس لأن هذا المبدأ هو عينه الذي
يسود جميع جوانب « الأعمال والأيام » والذي لا يدع أية فرصة تمر به دون أن يدعو دعوة
حارة متحمسة إلى الإيمان الراسخ بعدالة حكم زوس .

هذا هو الموجز الخاطف للثيوغونيا ، والآن إليك إجمالاً وتحليلها في شيء من البيان :
تتألف هذه القصيدة من عدة مقطوعات متساوية القيمة تقريباً تشغل كل واحدة منها
بفرع من دوحة الأوابوس تروى تاريخه وتبين أصله ، وتتبع تطوراته وتسرد مزاياه
واختصاصاته .

يبدأ المؤلف أو المؤلفون هذه القصيدة بمقدمة عدد أبياتها مائة وخمسة عشر بيتاً كما أسلفنا ،
وأول ما يلاحظه القارئ في هذه المقدمة هو تفككها إلى حد يمكن معه تقسيمها إلى ثلاثة
أقسام مختلفة لا يبعد أن يكون كل واحد منها من وضع شاعر بعينه ، فإذا تصفحنا القسم الأول
— ويبدو أنه أقدمها — ألفينا المؤلف يظهر على المسرح وينبئنا بغايته فيحدث إلينا قائلاً :

« نبدأ بالثناء على عرائس الشعر « الهيليكونيات » عرائس الشعر اللواتي يقطن جبل
الهيليكون الإلهي الرفيع واللواتي يرقصن بأقدام خفيفة حول النبع المظلم ، وبالتقرب من
هيكل ابن كرونوس القوى^(١) . . . هن اللواتي ألهمن هز يودوس في الماضي أنشودة نبيلة

(١) انظر الثيوغونيا من رقم ١ الى ٤ .

بينما كان يرعى حملانه في سفح الهيليسكون الإلهي . أما أنا فهناك في أية عبارة تحدثت إلى عرائس الشعر الأولموسيات ، بنات زوس الذي بيده الترس : « أيها الراعى غير المشذب ، والإنسان المنحط الذي لا هم له إلا الأكل . نحن نعرف أن نقول كثيراً من الأشياء الخيالية التي تشبه الحقيقة ، ولكننا نعرف أيضاً - حين نريد ذلك - كيف نصرح بالحقائق » .

هكذا تكلمت بنات زوس العظيم ، تلك الإلهات ذوات اللهجة العذبة ، وعلى أثر ذلك منحني كصولجان غصناً مورقاً من الغار كن قد قطعته لساعته ، وفي الوقت عينه أنشأت بوساطة نفثاتهن الأناشيد الإلهية لكي أشرع في التغنى بالمستقبل والماضي ، وأمرتني أن أصوغ ساسلة الآلهة في أناشيد ، وأن أترنم بهن أنفسهن منذ الآن وفي المستقبل دون انقطاع ^(١) تحيى إليكن يا بنات زوس ، إنني أسألكن أن تمنحنني ما يجعلني أروق سامعي إذا ترنمت ، وأن تمجدن معي سلسلة هذه الدوحة المقدسة للآلهة الخالدين الذين نشئوا من الأرض والسماء المزدانة بالنجوم ، والذين هم أبناء الليل المظلم ، والذين ألفت بهم أمواج البحر الملح إلى هذا العالم ^(٢) .

لا ريب أن القارئ يشعر إذ يقرأ هذا الجزء من المقدمة أن مؤلفها شاعر قديم اتخذ هز يودوس نموذجاً له يسير على نسقه ، ويزعم أنه كلف من قبل عرائس الشعر بوضع تاريخ الآلهة كما كانت الأساطير تروى أن هز يودوس قد كلف من قبلهن بوضع التعاليم الأخلاقية والزراعية ، فإذا أضاف هذا الشاعر المزعوم القائمة الدينية إلى القائمتين اللتين أنتجهما هز يودوس ، فقد تم للإنسانية ما تريد من خير وسمو ^(٣) .

(١) من رقم ٢٢ إلى ٣٤ .

(٢) من رقم ١٠٤ إلى ١٠٧ .

(٣) لما كانت ترجمة الأستاذ كروازيه لهذا النص مشتملة على عبارة « هن اللواتي ألهمن هز يودوس في الماضي » وعلى عبارة « أما أنا » الخ ولما كانت هاتان العبارتان تدلان دلالة واضحة على أن مؤلف هذا القسم من مقدمة الثيوغونيا هو شاعر آخر غير هز يودوس ، فقد كان من الطبيعي أن يرى الأستاذان كروازيه وهيچير هذا الرأي ، ولكن الأستاذة : بيرون ، ومازون ، وهيچير ، وبرجن يرون أن مؤلفه هو هز يودوس نفسه ، ولا يترجون تلك العبارتين السالفتين كما ترجمهما الأستاذ كروازيه .

غير أن شاعراً آخر جاء فيما بعد فأضاف إلى المقدمة فكرة خيالية اقتطع عناصرها من الأبيات السالفة ، ومجملها أن عرائس الشعر هن اللواتى أنشأن هذه القصيدة وجعلن يترنمن بها . وقد سجل هذا الخيال فى خاتمة ألحقها بالقصيدة ، ولكن العصور التى تعاقبت بعد هذا الشاعر نقلت هذه الخاتمة وأضافتها إلى المقدمة ، وهاك شيئاً مما جاء فيها تسجيلاً لفكرته :

« فى أعلى قمة الهيليكون كونت عرائس الشعر جوقة الرقص الرشيفة ذات الحركات النشيطة الفاتنة ، ومن هذا المكان عينه قد ارتحلن متزملات بالضباب ، واتجهن من خلال الليل مرسلات أصواتهن الساحرة فى الهواء ، وجعلن يمجدن زوس حامل القوس ، وهيريه الأبدية إلهة أرجوس ذات الحذاء الذهبية ، وابنة زوس أثينية ذات العينين الزرقاوين ، وفيبوس أبولون ، وأرتيميس ذات السهام السريعة^(١) . . . »

هاهو ذا ما كانت عرائس الشعر قاطنات الأولمپوس تترنمن به فى الليل ، عرائس الشعر التسع^(٢) ، بنات زوس العظيم :

« كَلِيُؤ » و « أوترَبيه » و « ثَالِيَا » و « مِلْپومينيه » و « ترَپْسيخوريه » و « إيراتو » و « بولْمِنِيَا » و « أورانيا » و « كَلْيُوييه » (انظر الصورتين فى الصفحة المقابلة) وهذه الأخيرة هى أنبل الجميع لأنها هى التى تتصل بالملوك الذين يحوطهم الإجلال التام والذي هو من بين الملوك منحدر من أصلاب الآلهة هو الذى تشرفه بنات زوس العظيم ،

(١) انظر البيت الخامس وما بعده من مقدمة الثيوغونيا .

(٢) هن الموسيه أو عرائس الشعر ، وهاك اختصاص كل واحدة منهن :

١ - كليو « Clio » عروس التاريخ . ٢ - أوترَبيه « Euterpe » عروس الموسيقى والشعر
الفنائى . ٣ - ثاليَا « Thalia » عروس المهازل . ٤ - مليومينيه « Melpomène » عروس
المأسى . ٥ - ترَپْسيخوريه « Terpsichorè » عروس الرقص والنغم . ٦ - إيراتو « Erato »
عروس المراتى . ٧ - بولْمِنِيَا « Polymnia » عروس الشعر الترفى . ٨ - أورانيا « Urania »
عروس الفلك . ٩ - كليوييه « Calliopè » عروس الشعر الحماسى والقصاحة .

وهو الذى ينظرون إليه بحماس منذ ميلاده ويسكن على لسانه قطرات من الندى العذب
الشهى فتنسب من فمه كلمات حلوة كالشهد^(١) كانت عرائس الشعر إذ ذاك
يتجهن من هيليكون إلى الأولمبوس ويرسلن أصواتهن الخالدة تجلجل في رشاقة فتردد
الأرض المظلمة على بُعد أناسيدهن ويرتفع تحت أقدامهن ضجيج عذب متسق إبان انجابهن
إلى جوار والدهن ، وهذا الأخير هو الإله الذى يحكم فى السماء وهو سيد الرعد والصاعقة



[الصورتان ١٩ و ٢٠]

كما رسم بارز ، وقد وجدنا
على جانبي قاعدة أحد
التماثيل من صنع بركسيبلوس
Praxitélos أعظم مثالي
الهلين على الإطلاق ، وهما في
متحف أثينا الوطنى وتمثلان
ستاً من عرائس الشعر . ومن
أهم ما يلاحظه النقاد على هاتين
الصورتين هو المقدرة الفائقة
على إبراز ثنايا الرخام فى
الأعضاء والملابس وإبداء
الفروق بين مظاهر العرائس
واختصاصاتهن] .



ذات البروق المزعجة ، وهو القوى الذى انتصر على والده كرونوس والذى أنزل الآلهة منازلهم وأعطى كل واحد منهم مرتبته فى عدالة وأقره فى مكانته »^(١) .

يتبين من هذه الأبيات أن مؤلفها كان متصلاً بالملوك والأمراء ينثر شعره بين أيديهم وتحت أقدامهم فأجأه ذلك إلى الزانى ، واضطره إلى اعتبار الملوك من عنصر أسمى من عناصر البشرية ، نعم إن هذا الاعتبار لم يكن غريباً فى تلك العصور ، ولكن الذى لا ريب فيه هو أن هز يودوس وأمثاله ممن لم تلجئهم ضرورات الحياة إلى الملق لم يكونوا فى حاجة إلى هذا النوع من الشعر كما أشرنا إلى ذلك عند حديثنا عن حياة هز يودوس .

أما الجزء الثالث من هذه المقدمة فهو أنشودة مستقلة عن سابقتها يبدوها مؤلفها بالغنى بجمال عرائس الشعر والترنم بحسن أصواتهن ، وبالسحر الذى تحدثه فى نفوس الآلهة ثم بمدح الآلهة والأبطال والعمالقة .

ويرى الأستاذ كروازيه بحق أن هذا الجزء الأخير من المقدمة كان يستعمل حينما كانت قائمة الأبطال التى فقدت تنشد مع الثيوغونيا .

٢ — بدء الوجود

بعد هذه المقدمة يبدأ المؤلف قصيدته فيقدم إلينا سلسلة متسقة الحلقات تضم بين طرفيها آلهة السماء ، وآلهة المياه ، وآلهة الأرض ، وآلهة الجبال ، وآلهة الماضي ، وآلهة الحاضر . وبالإجمال آلهة جميع الأزمان والأمكنة على طول الدهور وسعة المسافات . والآن إليك كيف يبدأ سلسلة هذه الدوحة الإلهية ويسير فيها على نسقه المنظم المتزن .

فى مبدأ الكون كان ثلاثة موجودات لم يتجاوز الفكر الهيلينى حدودهم ولم يذهب إلى ما هو أبعد منهم لأنهم أوائل الكائنات جميعها وهم : خاؤوس^(٢) أو الفراغ ، وغايا أو الأرض ، وإيروس أو الحب .

(١) أنظر الثيوغونيا من رقم ٦٨ إلى ٧٤ . ومن الطبيعى أن نرى الترتيب هنا مقلوباً ما دام أن أحد الشعراء القدماء قد نقل قائمة المقدمة من موضعها وأفحمها فى وسطها كما أشرنا إلى ذلك .

(٢) الخاؤوس هو فيما ترى المعاجم خليط أولى من جميع عناصر الحياة ، وهو أساس وجود الكون . وفى رأى بعض الاصطلاحيين من المتفلسفة هو المادة قبل تصورها أى الهوى ، وفى رأى البعض الآخر هو الفضاء أو الخلاء .

فأما خائوس ، فهو لم ينجب إلا إبان وقت قصير ، ولذا لم ينسل إلا الليل الذى أنسل
النور ، وأما الحب فهو لم ينجب أصلاً ، وإنما غايًا هى الوفيرة الإخصاب والعظيمة الإنجاب .
ومن إنجابها وإنجاب خائوس ينشأ العالم الخارجى فتتألف السكتل الأرضية ، وينبج
« نكس » أى النور من « إرييوس » أى الظلام . ويمتد « أورانوس » أى السماء فوق
الجبال الناشئة ويستريح « پنتوس » أى البحر فى مستقره العميق .

وإذ ذاك تبتدى السلسلة الهائلة التى تؤلف حلقاتها الكون ، فينشأ من اجتماع
أورانوس وغايًا التيتانوس والككلوبوس والهيكاتنخيروس ، وكلهم من العالقة أو من
الكائنات البشعة المربعة ، وبعد ذلك يروى لنا المؤلف قصة ثورة التيتانوس ضد والدهم ،
فيحدثنا أن التيتانوس كانوا أكثر جميع الأطفال الذين ولدوا من اجتماع غايًا وأورانوس
فضاعة ، وقد مقتهم والدهم ، فكان لا يكاد أحدهم يحىء إلى العالم حتى يسرقه وينزعه من
عالم النور ويخفيه فى بطن غايًا العميق . وكان يستمتع بفعله القاسى ، وفى أثناء ذلك كانت
غايًا العظيمة تن معذبة من فداحة الحمل الذى بين أحشائها ، فدبرت حيلة مناقعة خبيثة ،
فأنتجت معدناً صلباً لامعاً وصنعت منه منجلاً كبيراً ، وباحت بمشروعها لأولادها وقالت
لهم وهى مفعمة بالغضب لتشجعهم : « يا أولادى ويا أبناء والد قاس استمعوا إلى نصائحي
فسنتقم منه لأفعاله الرديئة ، لأنه هو الذى بدأ بالسوء » هكذا تكلمت ، وكان الجميع
يضطربون فلم يجرؤ أى واحد منهم على الحديث ، وكان كرونوس العظيم ذو العقل المحتال
والملء بالشجاعة هو وحده الذى أجاب أمه المحترمة قائلاً : « أماء ! سأكون أنا - وأنعهد
بذلك - الذى سينفذ مانييتينه ، فليس لدى أى اعتبار نحو والد غير جدير بهذا الاسم ، لأنه
هو الذى بدأ بالشر » . على هذا النحو تكلم كرونوس فاغتنبت غايًا العظيمة فى قلبها وأمرته
أن يكمن لأبيه ، ووضعت فى يده المنجل القاطع ، وأعدت للنجاح كل شيء ^(١) .

وبعد هذا النص يروى لنا المؤلف فى إيجاز نتيجة هذه المؤامرة وهى جب كرونوس
عضو التناسل من والده . وعلى أثر ذلك يسرد لنا أسماء التيتانوس ، وهم « أكيانوس المحيط »

(٢) انظر الآيات من رقم ١٥٤ إلى ١٧٥ من الشيوغونيا .

و « إبيريون » و « كريوس » و « كويُوس » و « يابيتوس » و « كرونوس » وهذا الأخير هو أهم إخوته وأعظمهم خطراً ، إذ هو الذى سينسل كل آلهة الهيلين العظماء الذين تموج بهم الأساطير .

ولا تكاد أسرة كرونوس تأخذ مكانها على مسرح الوجود حتى يتبدل فى بيئة الآلهة كل شئ ، فيخلف الآلهة البدائيين الذين لم يكن لهم حتى الآن هياكل ، ولم تكن الضحايا والقرايين تقدم إليهم ، ولا الأدعية تصعد نحوهم ، ولا الطقوس تقام تمجيداً لأسمائهم ، آلهة آخرون يستمتعون من الشعب الهيلينى بكل تلك العقائد والتقاليد ، ولكن مؤلفنا لا يكاد يذكر عن ذلك شيئاً ، لأن بغيته هى تعقب أسرة الآلهة جيلاً بعد جيل .

يروى لنا بعد ذلك أن كرونوس يطغى فيسجن جميع الكيكلوبوس والهيكاتونخيروس فى الظلام ، ولا يبقى من إخوته فى عالم النور إلا التيتانوس ثم يسجن أولاده إلا زوس تنقذه والدته « رهيا » وتنشئه فى جزيرة كريت على غير علم من والده ، وإذ يترعرع ويشتد ساعده يتمرد على والده فيخلص أخويه : « هاديس » و « بوسيدون » ثم يحرر الكيكلوبوس فيقدمون إليه - اعترافاً بحميلة - الصاعقة التى بفضلها ينتصر على والده ويسلبه السلطان وييسط سيادته على العالم .

غير أنه لا يكاد يحرز هذه السيادة حتى يهب أربعة من التيتانوس هم : « أتلاس » و « مينوتيسوس » و « برومئوس » و « إبيمئيسوس » أولاد « يابيتوس » فيثوروا به ويعلنوا له العداء فلا يسهه إلا أن يسلط عليهم عقابه الشديد ، ولكن المؤلف ينبئنا أن هنا حادثين أساسيين هما اللذان ثبتا عرش زوس وقضيا على جميع الفتن والدسائس والمؤامرات التى كانت تحاك حوله : الأول حادث ثورة جميع التيتانوس أولاد أورانوس وأنسالم ، تلك الثورة التى انتهت بسحقهم جميعاً . والثانى حادث إبادة العملاق البشع تيفوؤوس ، ولا يحدثنا المؤلف عن السبب الذى تشتعل من أجله ثورة هؤلاء التيتانوس ، ولا يصف لنا الحوادث التى تقع فى السنين العشر الأولى من هذه الحرب ، وإنما هو يصور لنا زوس فى السنة العاشرة

منها يخلص الهيكتاتنخيروس الثلاثة الذين أسرم كرونوس وهم : « بَرَزِيُوس » و « كوتوس » و « جيجيس » أولئك العاقلة الذين لكل واحد منهم مائة ذراع وخمسون رأساً . وهنا تعقد بينهم وبين زوس معاهدة يشتعل على أثرها لهيب المعركة الحاسمة التي يساهم فيها هو شخصياً فيرسل الصاعقة من فوق قمة الأولمبوس تهز كل شيء وتحدث في الكون اضطراباً عاماً تكون نتيجته إتمام النصر له ولحفائمه وتكبييل التيتانوس وإلقاءهم في أعماق طبقات الجحيم . وهاك ما يصور به المؤلف هذه المعركة الهائلة :

« كان الجميع في ذلك اليوم يهتفون بالحرب : الآلهة والإلهات وأبناء كرونوس ، وأولئك المحاربون الشاخصو الأنوف غير القابلين للانزهاج ذوو القوة الهائلة الذين أتى بهم زوس من أعماق « إيريبوس » ومن هُوى الأرض . كانت مائة ذراع تبرز من كتفي كل واحد منهم ، وخمسون رأساً ترتفع من فوق أعضائه القوية ، وقد وقف كل أولئك مسلحين



[الصورة رقم ٢١ هي رسم بارز ، وقد وجدت في حفائر مدينة برغاميا بآسيا الصغرى ، وهي تمثل تلك المعركة الحربية التي اختلط حابلها بنابها في معركة العاقلة التي عرفها أولف الثيوغونيا كيف يصورها أبداع تصوير]

بعضائهم الصخور في وجه التيتانوس الذين كانت فيالقهم ملتحمة متماسكة ، وكانت غاية الفريقين هي إظهار ما تستطيعه قوة أذرعتهم . وإنهم لسكذلك إذ البحر الهائل والأرض

الواسعة يُجلبجلان فجأة بضجيج مرعب ، والسماء تضطرب وتئن والأولپوس الرفيع يهتز من أساسه حينما يصطدم الآلهة ، بل إن ضجيج التصادم المروع والضربات العنيفة يخترق أعماق الترتاروس المظلم .

كانت الرجوم القاضية تتطاير من كل جانب ، وكانت أصوات الفريقين المتحمسين للمعركة تصطك بالسماء ذات النجوم ، وكانت الصرخات الهائلة تصعد من ميدان القتال ، ولم يكبت زوس وقتاً طويلاً الغضب الحربى الذى كانت نفسه مليئة به ، فلم يلبث أن أظهر كل قوته وقذف بالرعد من قمة الأولپوس ، من أعلى السماء ، فكانت الصواعق الملتهبة تتقاطر بضجيجها دون انقطاع من يده التى لا يعتورها العناء ، وكانت الأرض الخصبية تحترق مرتعدة ، والغابات الواسعة تنفجر ، وكان كل شىء يغلي : الأرض كلها ، والبحر الهائل ، فينتشر حول التيتانوس بخار خانق وهواء ملتهب ثم يبهز لمعان الصاعقة أعينهم الجريئة ويعميها ويمتد الحريق حتى يصل إلى الخاؤوس ، وكانت الأرض والسماء - فيما ترى الأعين وتسمع الآذان - كأنهما تمتزجان ، إحداها تهتز فوق قاعدتها ، والأخرى تهوى من عليها .

..... استمر القتال زمناً طويلاً بحرارة عنودة ، لكن « كوتوس » و « بريرئوس » و « جيجيس » قد قاموا فى الصف الأول بمعركة مزعجة ، فكانت ثلثمائة صخرة تلقى مرة واحدة بأذرعهم القوية بدون انقطاع على التيتانوس وتخفيهم كسحابة مظلمة . وفى النهاية قهروهم رغم شجاعتهم المتعجرفة ، وكلوهم بأغلال قاسية ، وأرسلوهم إلى أعماق طبقات الأرض .

..... هناك فى ظلام سميك وفى وسط بخار خبيث الرائحة ، وفى آخر حدود العالم دفن التيتانوس بأمر ملك السماوات ^(١) .

بيد أن زوس لا يكاد يقضى على هذه الثورة وينعم بالهدوء حتى تنفجر ضده ثورة أخرى تعرض عرشه وذاته للخطر أكثر من الأولى . ومجملها أن غايا تنجب عملاقاً بشعاً مزعجاً وهو « تيفوؤوس » ^(٢) فلا يكاد يبرز إلى الحياة حتى يتمرد على زوس ، فيبادر هذا

(١) رقم ٦٦٦ وما بعده .

(٢) تيفوؤوس ، هو منشىء الرياح المشؤمة .

الأخير إلى إخضاعه ثم إلى إبادته . وبهذين الانتصارين يتثبت سلطان زوس ويرسخ عرشه ، ويقبض على نواصي الأمور في الكون كله بيد من حديد .

وبعد هذا يقص علينا المؤلف كيف نشأ سكان الأولمپوس الحاليون فينبئنا بأن زوس يجتمع على التعاقب مع « ميتيس » Métis ، ثم ثيميس Thémis ابنة أورانوس وهي إلهة العدالة التي تزن كل كبيرة وصغيرة بالقسطاس المستقيم (انظر الصورة رقم ٢٢ في صفحة ٢٠٦) ثم مع أورينوميه « Eurynomé » ثم ديمتير « Deméter » إلهة الزراعة وهي ابنة كرونوس أنجبها من ربا ثم مع منيموسينييه « Mnémosynè » إلهة الذاكرة ، وهي ابنة أورانوس وشقيقة ثيميس إلهة العدالة الأنثى ذكرها ثم مع ليتو « Leto » ابنة التيتانوس كويثوس وأخيراً هيريه ابنة كرونوس فينجب منهن إلهات الفصول الأربع ، وإلهات الآجال الثلاث ^(١) ، وهن كلوتو « clotho » ولاخيسيس « Lachésès » وأتروپوس « Atropos » وإلهات الرشاقة الثلاث ، وهن : أغلاييه Aglaé وثالياً Thalia وأفروسينييه Euphrosinè . ويرسيفنينا ^(٢) Perséphonè والموسيه Les Muses أى عرائس الشعر التسع ^(٣) اللواتى أسلفنا الحديث عنهن . وأبولون ^(٤) ، وأرتيميس ^(٥) ، وهيبه ^(٦) Hébé وأريس ^(٧) Arès وإيليثيه ، وفيما عدا ذلك فإن زوس ينجب وحده بالاس أثينيه ، إذ تجيء هذه الأخيرة إلى عالم النور بطريقة غير طبيعية تفتح رأس أبيها وتخرج منه مدججة بسلاح الأزلية والأبدية ، وإنما نشاء الأساطير الهيلينية أن تخرج أثينيه من رأس أبيها لتشير إلى أن منشأها وهو الدماغ هو مكان الحكمة وماوى العقل والذكاء ، وكذلك هيريه تنجب وحدها هيفستوس ^(٨) .

-
- (١) هن ثلاث أخوات وكل إلهن تحديداً آجال البشرية بوساطة نسيج رمزي ، فالأولى وهي « كلوتو » تتولى غزل الحياة ، والثانية وهي « لاخيسيس » تقوم بنسجها ، والثالثة وهي « أتروپوس » تقطع خيوطها .
 (٢) بيرسيفنيا أنجبها زوس من ديمتير .
 (٣) أنجبهن من منيموسينييه ، وقد سبق الحديث عن اختصاص كل منهن .
 (٤) إله الشمس والفنون الجميلة .
 (٥) أرتيميس إلهة القمر والصيد وقد أنجبها زوس هي وشقيقها أبولون من ليتو .
 (٦) هيبه هي إلهة الشباب .
 (٧) أريس إله الحرب ، وقد أنجبه هو وشقيقته من هيريه .
 (٨) هيفستوس هو إله الحدادة وهو غاية في الدمامة والقبح ونشوه الحلقة .



[الصورة رقم ٢٢]
مأخوذة عن تمثال موجود
في المتحف الوطني بأثينا ،
وهو من صنع المثال الهيليني
خيرستراتوس الذي عاش
في القرن الثالث قبل المسيح ،
وتمثل ثيميس إلهة
[العدالة]

إلى هنا - فيما يظهر - تنتهى القصيدة البدائية وتبدأ المائة بيت الأخيرة المنتحلة ، والتي تنبه إلى انتحالها نقاد الإسكندرية فجحدوا صدور بعضها عن مؤلف الثيوغونيا والتي نسردها لتاريخاً مظلماً مختلطاً وتحدثنا عن بعض البشرىات اللواتى افتنن بهن الآلهة كالنساء الآتية أسماؤهن (١) « سيميليه Sémélé » بنته كذموس ملك ثيبا التى يكلف بها زوس فينجب منها ديونيسوس Dionysos إله الخمر (ب) ألكيمييه Alcmenè زوجة أنفريون ملك ثيبا ويعشقها زوس أيضاً فتلد له « هيركليس » Héraclès (ح) « أريانيه » Arianè ابنة مينوس ملك كريت (د) مديا Médée الساحرة . وأخيراً يختتم المؤلف قصيدته بقائمة يسرد فيها أسماء الإلهات اللواتى يجتمعن برجال من البشر فينجبن منهم أبطال الهيلين ، فيشعرنا بأنه قد بدأ يترك سلسلة الأولمپوس لينشغل بتاريخ الأناسى .

٣ - كيف تكونت الثيوغونيا :

أسلفنا أن نسبة مقدمة الثيوغونيا موضع ريبة شديدة دار حولها جدل عنيف بين النقاد أما القصيدة نفسها فإن الذى نستطيع أن نقرره بإزائها بعد هذه الطوفة العاجلة التى طفناها بها معك هو أنها - إذا استثنينا المائة بيت الأخيرة وبعض منتحلات أو استشهادات أخرى - لمؤلف واحد ، لأن الوحدة والنماسك يسودانها تمام السيادة كما هو الشأن فى كل سفر يؤلفه كاتب أو شاعر واحد ، ويضع نصب عينيه غاية معينة يشملها بعنايته من أول الكتاب إلى آخره .

وفى الحق أن إجماع النقاد المحدثين يكاد ينعقد على أن أكثريتها الغالبة هى لهزيرودوس وإن كان ذلك لا يمنع من اشتغالها على انتحالات ذات بال ، ومن أن بها عدداً غير قليل من الأبيات قد زج به بين مقطوعاتها زجاً دون أية صلة تربطه بما قبله أو ما بعده ، وأكثر من ذلك أن بعض الباحثين قد انتهوا إلى الإيقان بأن طائفة من شعر هوميروس نفسه قد أقحمت بين أبياتها إقحاماً ولم يستبعدوا أن يكون ذلك من قبيل أولئك المتهمين على سبيل الاستشهاد

أو التشبيه دون أى قصد إلى الانتحال أو تزييف الحقائق التاريخية . ولعل من هذا ما أورده المؤلف بعد وصفه خيميرا Chimœra إذ ينقل لنا من الإلياذة فى تصوير هذا الكائن المزعج ما نصه :

« إن له مقدم أسد ومؤخرتين ووسط معز ، وهو بقى زوابع من اللهب ^(١) » .

ومع هذا كله ، أو رغم هذا كله ، فإن النقاد المحدثين يعزون القصيدة إلى مؤلف القسم البدائى من المقدمة ويرجعون أن هذا المؤلف هو هزيردوس كما أشرنا إلى ذلك . وهم يعتمدون فى حكمهم هذا على تلك الروابط المتينة التى تصل أجزاء القصيدة وصلا محكما وعلى ذلك التقابح المنطوق الذى يجتازها من مبدئها إلى منتهاها ، وعلى الصنعة والأسلوب اللذين يجعلان الشبه بينها وبين « الأعمال والأيام » قويا متماسكا .

على أن أولئك النقاد يستثنون من هذا الحكم المائة بيت الأخيرة التى تتميز بطابع أكثر جدة وتأخرا فى الزمن عن بقية القصيدة .

ويرى الأستاذ كروازيه أن هذه القصيدة قد اشتملت على منتحلات أخرى غير المائة بيت المشار إليها كمنظر تدخل زوس فى حرب الهيكاتنخيروس والتيتانوس الذى لا يظهر له — فيما يرى هذا الأستاذ — أى أثر على كبير فى مصير تلك الحرب ، وما بعد إضافته مؤانته انتقد به موقف زوس الذى رأى أنه مخجل بسبب عدم قدرته على الخروج من الورطة بمجهوده الشخصى ، فأراد أن يجعل دور الصاعقة ذا أثر فعال فى المعركة . ومن هذه المناظر المنتحلة — فيما يرى أيضا — منظر سجن التيتانوس فى مكان لا اسم له يسهب الشاعر المتأخر فى وصفه ، وينسى أن القصيدة نفسها قد نصت على أن التيتانوس قد سجنوا فى الترتاروس ، وليس ذلك عجيبا ، فهذا الناحل كغيره من ناحلى بعض أناشيد الإلياذة والأوديسا الذين كانوا يأتون فى منتحلاتهم بما يناقض القصيدة البدائية ، لأنهم نسوا محتوياتها ، أو لأنهم لم يكلفوا أنفسهم غناء استيعاب ما فيها كما أشرنا إلى ذلك فى مواضعه مرارا .

(١) انظر البيتين ١٨١ و ١٨٢ من الأنشودة السادسة من الإلياذة .

ومما لا ينبغي إهماله هنا أن تثبت أن المؤلف مدين بهذا التقابع المتين المنظم لذلك القانون الوحيد الذى هو عين النظام الزمنى والذى يقتاد ويرتب - دون أدنى ضعف ولا تحاذل - ذلك الإحصاء الهائل الذى يشمل دوحة الآلهة ، فالمؤلف ينتقل بنا من عهد إلى عهد مبتدئاً دائماً من أكبر أفراد كل طبقة متبهماً إلى أصغرهم ، وعندما يفرغ من إحصاء إخوة الطبقة الواحدة يعود إلى كل فرد منهم باعتباره رئيساً لأسرته الخاصة فيحصى نسله ثم يتجه إلى من يليه من طبقته ، وهكذا يمر بشرادم عدة من الآلهة دون أدنى اختلاط أو اضطراب ، فإذا سائرناه في خطته - ولا مناص لنا من ذلك - ألفيناه ينحدر من الأجداد والآباء إلى الأبناء والأحفاد انحذاراً طبيعياً لا بأس به ، وهو فى ذلك لا يبالي أن يعيد اسم الإله عدة مرات ، فيذكره ابناً فزوجاً فوالداً فجداً ، وسر ذلك أنه كان يهدف إلى وضع قائمة دقيقة مضبوطة بأسماء الآلهة وبيان منشأ كل منهم وصلته البنوية أو الأبوية أو الأخوية أو الزوجية بغيره من أفراد أسرة الأولمپوس ، وهو فى كل هذا يحترم الترتيب الزمنى ، ويخضع لتتابع المصور ، فنجم عن ذلك المنهج أن جاءت قصيدته قائمة بأسماء يتلو بعضها بعضاً ، وأسر يخلف طارفاً تليدها ، وندرت فيها القصص المسهبه والروايات المطنبة .

وإذا كان من حقنا أن نعنى بتحليل كل مؤلف وباستكناه منزلته الأدبية من خلال منتجاته ، فقد وجب أن نجزم بأن مؤلف التيوغونيا كان رجلاً بسيطاً متمسكاً بالتقاليد ، متقيداً بالتراث الموروث ، وأنه ليس من أولئك الشعراء الذى يخلقون فى أجواء الأخيصة والأحلام ، ويرمون إلى إنشاء شعر براق يفتن ظاهره وتخلو أعماقه من المعارف ، وإنما هو من أولئك الذين ينمطون بالفطرة نحو إرضاء الحقيقة بقدر المستطاع . ومن ثم نحن نشاهد الشاعر فى أغلب الأحيان يحتفى وراء المَحْصَى الذى لا يعنى إلا بالرتب والأرقام ، ومع ذلك هو لا يهوى فى أحبولة جفاف الحاسبين والمرقين إلا نادراً . ومن أبرز مواهبه أنه يعرف كيف يطبع كل إله بالطابع الذى يميزه عن غيره تمييزاً دقيقاً ، والذى هو منتزع من (م ١٤ - الأدب الملىنى)

الأسطورة الخاصة بهذا الإله ، أو ينعتة بنعت من تلك النعوت التقليدية التي لازمتها منذ عهد الأناشيد البدائية .

على أن هذا ليس معناه أن شاعرنا كان مجذب الخيال ، وإنما هو على العكس من ذلك كان كثيراً ما يسلم نفسه إلى إلهاماته العالية فيصوغ بعض الأحداث الأسطورية صياغة تكاد ترتفع إلى صف جوهرتي هوميروس .

ومن الخصائص المميزة لمؤلف الثيوغونيا أنه يمتد النساء ويحتقرهن ويوجس منهن خيفة في كل خطوة من خطوات حياته ويتوقع من عشرتهن كل شر وسوء . ومن آيات ذلك أنه - بعد ما يروي لنا أسطورة بندوريه على النحو الذي هي عليه في قصيدة « الأعمال والأيام » - يعقب عليها بقوله :

« إن أرومة النساء المخصبة قد انحدرت من بندوريه ، نعم إن هذا العنصر المشؤم قد نشأ منها ! وإن النساء هن ذلك الوباء القاسي الذي يقيم مع الرجال ، النساء اللواتي لا يساهمن في احتمال الفاقة ، بل هن يسرعن إلى المساهمة في الثراء . . . على نحو ما تفعل ذكرا النحل التي تَطْعَمُ من ثمار إناثها ولا تنتج إلا شراً . وبينما تكذب إناث النحل طول النهار وتكدح في نشاط متواصل لتكوين أفراس الشهد ، نرى ذكرانها لا تكاد تبدى حراكاً ولا تغادر خليتها المتوجة بالسُّقْف ، وكل عملها ينحصر في أنها تزدد في بطونها إنتاج الغير ؛ على هذا النحو نفسه نكب زوس المُجَلْجِلُ في الجو ، الرجال بوباء النساء . . . نعم إن المرء الذي يفر من الزواج وينجو بنفسه من سحابة صحبة النساء ، ويرفض أن يتخذ له زوجة ويصل إلى الشيخوخة المحتومة ، يعيش محروماً نعمة العناية الضرورية ، ولكن الذي يذعن لمصير الزواج ويظفر بامرأة مفعمة بالطهر والحكمة يجد الشر عنده معادلاً للخير سواء بسواء . أما الرجل الذي يصطدم بزوجة فاجرة فإنه يحمل في قلبه مدى حياته أحزاناً لا تنهاى ^(١) » .

وبهذه المناسبة ينبغي أن نشير هنا إلى أن الأستاذ بيرون - وهو أحد الذين يعزون

(١) انظر رقم ٥٠٩ وما بعده من الثيوغونيا .

التيوغونيا إلى هزيودوس - يتخذ من هذا النص السالف برهاناً يؤيده في دعواه ، إذ يجزم بأن وحدة مؤلف « الأعمال والأيام » و « التيوغونيا » لا تبدو جلية في أى موقف آخر على النحو الذى تبدو عليه بإزاء تصور المرأة في القصيدتين ، فسكما يرينا المؤلف صورتها في « التيوغونيا » قائمة بغیضة ، هو يطلعنا عليها في « الأعمال والأيام » رهيبة مزعجة ، إذ بعد أن يحدث شقيقه برسيس عن أسطورة بندوريه ، ينصح له في عدة مواضع أن يأخذ حذره من النساء اللواتى يشتهن ماله أكثر مما يأبهن لقلبه ، وهو ينصح له كذلك أن يحتاط أشد الاحتياط في زواجه فيقول :

« إختبر بانتباه قبل أن تختار حتى لا يجعلك زواجك أضحوكة لجيرانك ، فإذا لم يكن للرجل من كل ما يظفر به خيراً من زوجة فاضلة لم يكن عليه كذلك نكبة أفدح من زوجة فاسدة . . . إذ أن هذه الأخيرة تستطيع - بدون نار - أن تستهلك زوجها وتدفع به إلى الشيخوخة القاسية قبل الأوان^(١) » .

٤ - القيمة الأدبية لهذه القصيدة :

تتمتاز هذه القصيدة بلون من الجمال الجدى الذى ينتعش أثره في النفوس بهيئة قاسية تطبعها بطابعه وتقهرها على إدامة التفكير فيه . وقد فطن الهيلين إلى هذا الجمال وأدركوا أسرارهم وخفائهم وعرفوا رموزه ومراميه ، ولكن الرومان قد غفلوا عنه وقصرت عقولهم العملية عن إدراكه ، وعجزت قلوبهم التي تعيش على الأرض وترتبط بالمادة عن فهمه أو استساغته . ويرى الأستاذ كروازيه أن المحدثين هم أقل من الرومان تذوقاً لهذا اللون من الجمال وأعجز منهم عن فهمه ، ولكنه يرى أن العدالة تتطلب منا أن نعترف بأن هذه الأسماء التي هي عندنا مملّة أولاً دلالة لها ، وما كان يحوطها من خيال قاتن ونظام بديع ، والنعوت التي كان الشعر يصوغها لأوائك الآلهة كانت تسحر بانسجامها تلك القلوب النقية النبيلة . وإليك نموذجاً من هذه النعوت الساحرة :

(١) انظر رقم ٦٩٩ وما بعده من « الأعمال والأيام » .

« دُوريس ، و ، بانوبيه ، و ، غالايا الفاتنة ، و ، هيپوثوثيه ، العذراء المحببة ، و ، هيپوثوثيه ذات الذراعين الورديتين ، و ، كيمودوكيه التي تهدى الأمواج وتسكن صغير الهواء القوى فوق البحر المظلم بالسحب مع أختها « كيأتوليبيجه » ومع « أنفثريتيه^(١) » ذات القدمين الجميلتين^(٢)

هناك داع آخر وجد عند الهيلين فحملهم على تذوق هذه الأساطير وغاب عنا ، فسلبتنا غيبته هذه اللذة ، وهو أن كل اسم من هذه الأسماء ، أو نعت من تلك النعوت ، أو اختصاص من هانيك الاختصاصات المعزوة إلى الآلهة كان له عند كل فرد منهم ذكريات عذبة أو أليمة ، لا ارتباطه بمحادثة سعادة أو شقاء له أو لابنه أو لأبيه أو لجدده . وفوق ذلك فإنها كانت تشتمل على شرح كثير من أسرار الحياة الواقعية التي كثيراً ما يلتقى بها في شبابه وشيخوخته ، في منزله وحقله ، في متجره ومصنعه ، بين زوجه وأولاده ، بين أصدقائه وأعدائه ، بين رؤسائه ومرءوسيه التقاء عملياً جديراً بأن يكون له في هذا التذوق أثر فعال . بيد أن هذه الحلول التي كانت الأساطير تحملها من الماضي إلى الحاضر ، كانت تارة خفية غامضة ، وأخرى سهلة واضحة للعيان ، فكان الخاصة يدركون الأولى ويفتنون بها ، والعامة ينبهرون بالثانية ويمضون عليها بالنواجذ ، وهالك نموذجاً من النوع الثاني :

« إن الليل قد أنجب الحظ السيئ والموت البشع ، وأنجب النوم وأسرّة الأحلام ، هاهو ذا ما أنجبه الليل الحالك دون أن يجتمع بأحد ، وفي البطن^(٣) الثاني أنجب للعالم الأم القاسي ، والهسبير يذيس اللواتي يسهرن من وراء المحيط على حراسة التفاح الذهبي والأشجار التي تحملها ، والنيميسيس^(٤) التي هي بلاء بني الإنسان ولدت أيضاً من الليل المشتوم ، وبعدها ولدت الخدعة والشهوة الحسية ، والشيخوخة المؤذية والشقاق (إيريس) ذات القلب القاسي^(٥) .

(١) أنثريتيه هي إحدى بنات البحر وستصير زوجة لپوسيدون فيما بعد .

(٢) انظر رقم ٢٥٠ وما بعده من الثيوغونيا .

(٣) ينبغي أن نلاحظ هنا أن الليل في اللغة الهيلينية مؤنث يحمل ويضع .

(٤) نيميسيس هي إلهة الانتقام .

(٥) انظر رقم ٢١١ وما بعده من الثيوغونيا .

في الحق أن هذا الخيال يصور الحياة البشرية أبدع تصوير حين يتتبع الأمراض والآلام والشيخوخة ونكبات الحياة وبلاياها وشهواتها وشروورها ومفاسدها ، فيلقي أصولها كلها غامضة مبهمه ولا يجد أكثر غموضاً من الليل المظلم فيلحقها به ويجعله أصلاً لها ، فيكون ذلك منه بمثابة تصريح بأن ما تموج به الحياة من مظاهر وحوادث ، ونكبات وكوارث ، وأمراض وبلايا ، ومحن ورزايا ، تبدأ كلها في سلاسل ، أطرافها الأولى تتصل ببني الإنسان ، وحلقاتها الأخيرة تغيب في ظلام قائم لا يدرى أحد مداه ، ولا يدرك منتهاه .

بقيت هنا فكرة ينبغي أن نشير إليها قبل مغادرتنا هذا الفصل ، وهي احتواء الثيوغونيا على قبس صغير من أضواء المبادئ الفلسفية العالية التي سيكون لها فيما بعد شأن عظيم .

نعم إن شاعرنا لا يعرض في قصيدته للفلسفة بمعناها الفني من قريب أو من بعيد ، بل لعله لم يفكر في ذلك ألبتة ، وإنما هذه المبادئ قد وجدت فيها بطريقة آلية اقتضتها طبيعة هذا النوع من الشعر ، وبيان ذلك أن المؤلف لما جمع كل الأساطير والخرافات المعروفة منذ أقدم العصور إلى العصر الذي عاش فيه ، ثم كدسها في ذاكرته وسلط عليها عقله المتنازعة ، فجعلت توازن بينها وتصدر عليها حكمها ثم تنتقى أنفُسَها وأسمائها . وأخيراً تكل تلك المنتقيات إلى ذلك الخيال الخصب ليعمل فيها عمله ، فيثمر هذه الثمرة الملحوظة ، وهي ترتيب ما اختاره من ذلك الخليط وتنضيده والعمل على وضعه في سلسلة متسقة الحلقات ليصل من وراء ذلك إلى الوحدة المطلقة . ولا ريب أن هذه فكرة فلسفية لا يستهان بها لأن الاتجاه إلى الانساق والوحدة هو نفس السير نحو الغاية العليا المحددة التي رمت إليها الفلسفة منذ طاعتها الأولى .

وفوق ذلك فإنه يوجد وراء هذا الخضم الهائل من الأساطير هدف أساسي غير قابل للجحود ، وهو بدء الكون ، وإن كان قد قام حوله سياج سميك من هذا الشعر الخرافي

الذى لا يسمح لنظرات العقل أن تجتازة إلى الحكمة العالية الكامنة في داخله . وإذا سائرنا الفلاسفة هنا في تعبيراتهم استطعنا أن نقول إن في قصيدة الثيوغونيا فلسفة بالقوة تتحول إلى فلسفة بالفعل عندما تنهيا لها الظروف الملائمة منذ عهد ثاليس الملىتي ومن أتوا بعده من أعلام فلاسفة الهيلين .

(ب) قائمة الأبطال

لم تكن هذه القائمة تقل أهمية ولا تصغر في قيمتها الأدبية عن الثيوغونيا لأن مؤلفها قد عرف كيف يسمو بنفسه وبقرائه عن التعصبات الموضعية التي تنحط بصاحبها إلى التحيز ، فنظر إلى جميع الأبطال نظرة عادلة نزيهة ولم يسمح للعاطفة بأن تقود قلمه مرة واحدة ، فعرف كيف يجعل قصيدته في مأمن من العصبية التي ليس أعدى منها للعلم ، ولا أخطر على الحق ، ولا أشأم على التاريخ ، واستطاع بهذه الخطة أن يقهر قدماء النقاد ومحدثيهم على احترامه .

غير أن هذه القصيدة - مع الأسف الشديد - قد فقدت أكثرها ولم يبق منها غير حوالى مائة شذرة مبتورة لا تشبعهم الباحث ، ولا تنفع غلة الناقد ، بل قل : إنها لا تمكن القارئ العادى من تتبع القائمة ولو تتبعها سطحياً .

يسير مؤلف هذه القصيدة على نفس النهج الذى سار عليه مؤلف الثيوغونيا فيسلك مع الأبطال خطة سالفه مع الآلهة ، فيتعقبهم أطفالاً وأزواجاً وآباء .

ومما يلفت النظر في هذه القائمة تلك الخطوة الفائقة التي اختص المؤلف بها الجنس اللطيف في قصيدته إلى حد أن جعل القدماء يطلقون عليها اسم قائمة النساء . ولقد بلغت عناية هذه القائمة بالنساء من الشهرة مبلغاً حل بوسنياس على أن يدعوها بالدمية لاشتمالها على الدميات البشريات . ويحدثنا مكسيموس التيرى - وهو من الذين يعززون هذه القائمة

إلى هز يودوس - أن مؤلفها قد عول على أن يسرد أرومات أبطاله مبتدئاً بأمهاتهم ، أى أنه كان يسلك في أنسابه نهج السلسلة الأموية ، لأنها أكثر ثباتاً وأدخل في باب اليقين من السلسلة الأبوية . ولعل حرصه على الحقيقة واضطرابه من خشية الوقوع في الباطل أو الزيف هما اللذان حملاه على سلوك هذه الخطة .

يبدأ المؤلف قصيدته بالحديث عن بندوريه التي هي عنده زوجة برومسيوس فيروى لنا أنها هي مبدأ العنصر الهيليني إذ تنجب « دوكلونيون » الذي ينجب بدوره « هيلين » الجد الأعلى للأمة الهيلينية كافة^(١) ، ولكن هذا الحديث لا يلبث أن ينقطع بانتهاء تلك الشذرة الضئيلة ، ولا يستطيع الباحث أن يعثر على صلة في الشذرات الأخر بهيئة تطمئنه ، فلا يسمعه إلا أن يدعن للنتيجة الواقعية التي أحدثتها أيدي البلى بهذه القصيدة ، وأن يكتفي بإعلان الأسف على فقدائها وحرمان العالم الحديث نعمة محتوياتها النفيسة .

وإذا لم يكن لنا بد من أن نعقب على هذه القصيدة بشيء ، فقد نرى لزماً علينا أن نسجل هنا أن مؤلفها يشبه مؤلف الثيوغونيا في الكلف بالنظام والضبط وتوخي الدقة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً .

ومن مميزاته أيضاً أنه منعطف بفطرته نحو القصص الساطع الموجز كذلك اللون الفاتن الذي نلتقي به في إحدى شذرات القائمة والذي يعنى بتصوير حملة أرجونوتيه^(٢) .

على أنه لا ينبغي أن يفوتنا قبل مغادرة هذه القصيدة أن نشير إلى أن أحد الأدباء في عصر غير معروف بالضبط قد قسمها إلى أربعة أقسام ، بينما أن فريقاً آخر من المشتغلين بالأدب في العصور القديمة قد أثبتوا أن القسم الرابع ليس منها ، وإنما هو قصيدة مستقلة ، وهي خاصة بإحصاء النساء البشريات اللواتي عشقهن الآلهة ، ولم يبق لنا مع الأسف منهن سوى خمس ،

(١) Frag ., 1-3-7 , édition Rzach, Leipzig, 1902 .

(٢) حملة الأرجونوتيه هي تلك الحملة الشهيرة في تاريخ الأساطير الهيلينية والتي تألفت من خمسين بطلاً من أبطال الهيلين كيازون ، وهيركليس ، وكستور ، وبوليدكليس ، وأرفيوس ، وتيلامون وأضرابهم والتي أبحرت على سفينة أرجو بقصد الاستيلاء على الجزة الذهبية .

وهن : (١) ألكمينيه «Alcménè» وهى زوجة أنفثريون ملك ثيبا ، وقد أحبها زوس وأنجب منها هيركليس . (٢) كرونيس Coronis ابنة الملك ملجىوس وقد عشقها أبولون وأنسل منها أسكليبيوس Asclépios إله الطب ، وقد ذكره العرب فى كتبهم الطبية كثيراً .



[الصورة رقم ٢٣ مأخوذة عن رسم بارز يرجع تاريخ صنعه إلى القرن الرابع قبل المسيح ويوجد الآن فى المتحف الوطنى بأثينا ، وهى تمثل موكباً من الضارعات متجهاً إلى معبد أسكليبيوس إله الطب ، ويرى فى الصورة كذلك أسكليبيوس جالساً فى معبده وعلى مقربة منه ابنته هجيبه إلهة الصحة]

(٣) أنتيويه Antiope وهى ابنة نكتيوس ملك ثيبا ، وقد أغرم بها زوس .
(٤) مكيونيكيه ، وقد تدله فى غرامها پوسيدون . (٥) كيرينيه Kirène وقد وله فى حبها أبولون ونقلها إلى ليبيا ، وباسمها سميت مدينة كيرينا التى نطقها العرب قورينا ونسب إليها الفلاسفة القورينائيون .

(>) ترس هيركليس

تعتبر هذه القصيدة ضمن القصائد التى شغلت الأدباء فى عصرها ، ولكن ذلك لم يكن لقيمتها الأدبية ، بل لشهرة عنوانها وأهمية الموضوع الذى عرضت له ، وعدد أبياتها

أربعائة وثمانون بيتاً ، وقد بقيت كلها ، ولكن النقاد المحدثين يميلون إلى أن الأربعة والخمسين بيتاً الأول منها هي مؤلف قائمة النساء البشريات اللواتي أحبهن الآلهة ، وهي القائمة التي أسلفنا الحديث عنها ، والتي ألحقها البعض بقائمة الأبطال وعزاها إلى هز يودوس .

وأياً ما كان فإن هذه المقطوعة الأولى من ترس هيركليس هي التي تحوى - كما في القسم الرابع من القائمة العامة - أسطورة « كف زوس بالكمينية » إذ تحدثنا كيف أن أنفثريون وزوجته ألكمينيه تضطرها ظروف خاصة إلى الالتجاء إلى ثيبا حيث يندلع غرام زوس بهذه الزوجة الفاتنة وكيف يرتحل زوجها ثم يعود وكيف تلد التوءمين هيركليس من زوس ، وشقيقه أرسيتيوس من زوجها أنفثريون .

وعلى أثر انتهاء هذه الأسطورة يحس القارئ أن الأسلوب قد تغير فجأة فهوى إلى الحضيض ، إذ ينتقل بنا المؤلف إلى إنشاء ضئيل القيمة منحط المستوى ، والموضوع الظاهري الذي اتخذ هذا الشاعر لإنشائه ، هو معركة هيركليس وكنئوس بن أريس الذي عطل القرابين المعدة لمعبد أبولون في ذلفيه ، ولكن المؤلف كان يرمى في الحق إلى وضع وصف لترس هيركليس يشبه وصف الإلياذة لترس أخيلوس ، فجاء ذلك الوصف محاكاة سخيفة لا يمكن تشبيهها بالأولى إلا لبيان دمايتها وقبحها إلى جانب حسن وصف هوميروس ودقته .

(د) قصائد مختلفة

ظهرت في هذا العصر عدة قصائد تاريخية مختلفة لا يعرف مؤلفوها ، فنسب القدماء بعضها إلى هز يودوس ومن أشهرها قصيدة عنوانها :

الميلَـبوسية

وهي نسبة إلى ميلَـبُوس الإلهي الذي هو بطلها الأساسي وإن كنا نجد فيها إلى

جانب اسمه أسماء كثيرين من أبطال العصور القديمة كأسماء العرافين الثلاثة : كلخاس ،
وتيرسياس ، وأمفيلوخوس .

ويحدثنا بعض القدماء أن من بين محتويات هذه القصيدة قصة تصور لنا زوس ، وهيريه
يستلهمان أنباء الأقدار من تيرسياس العراف . ولا ريب أن هذه آية من آيات انحطاط
العقلية وإسفاف مستوى فهم الأساطير في ذلك العهد ، وإلا فكيف ينحط زوس إلى حد
الجهل بالأقدار واستلهاها من أحد الأناسى العرافين الذين هم صنيعه يده ، والذين ليس
ما عندهم من عرفان إلا بصيصاً من وحى ابنه أبولون .

غير أن هذا السخف لا يمنعنا من أن نعلن أن في هذه القصيدة أبياتاً لا تخلو من حسن
ورشاقة كمثل الآيات التي يناجى فيها تيرسياس زوس متضجراً من طول حياته ومن معرفته
بالأقدار فيقول :

« زوس أيها الوالد والمليك ! لماذا لم تمنحني حياة أقصر من حياتي ؟ ولماذا لم تعطني
نصيب من الجهل الإنساني ؟ ليست هذه خطوة تلك التي حبوتني بها بمنحك إياي هذه
الحياة الطويلة التي بلغت سبعة أجيال من أجيال الفانين ^(١) .

نزول ثيسوس إلى الجحيم

ومن هذه القصائد أيضاً قصيدة نزول ثيسوس عند « هاديس » التي يروى فيها مؤلفها
كيف نزل ثيسوس إلى الجحيم ، ثم يقدم إلينا قائمة يسرد لنا فيها أسماء مشاهير موتى الهيلين
وشيثاً عن أنسابهم وأسرهم ، فيذكرنا بالقائمة العظيمة التي أسلفنا لك أنها فقدت .

(1) M. Croiset , Histoire de la Littérature grecque, tome, p.572 .

هناك كثير من القصائد الأخرى ظهرت في هذا العهد بقى بعضها كاملاً ، وقد بعضها الآخر فلم يبق منه إلا عناوينه أو شذرات ضئيلة منتثرة غير كافية لإعطائنا فكرة واضحة عنها وعن مؤلفيها ، ولكن الذى نستطيع أن نقرره فى هذا الشأن بوجه عام هو أن هذه القصائد كلها كانت ضئيلة القيمة ، منخفضة المستوى لا تؤذن بمواهب مؤلفيها ، ولا تشعر القارئ بأنهم من الممتازين . ولهذا لم يكد التاريخ يخطو فى طريق الرقى خطاه الواسعة حتى سندل على هذه المنتجات الضعيفة ستار النسيان .